حادي عشر : الكتابات الوقفية

قبل الحديث عن الكتابات الوقفية لابأس بالحديث قليلا عن مفهوم الوقف وحكمه في الشريعة الإسلامية ، والوقف لغة من جذر وقف يقف وقوفا ووقفا ، بمعنى الارتكاز على الأرجل بالنسبة للإنسان أو الدابة ونحو ذلك ، وقد يعني الثبات والسكون بالنسبة لكل ماهو متحرك أو قابل للحركة حقيقة أو مجازا ، وهو المعنى الذي جاء منه اصطلاح الوقف ، فتعريفه اصطلاحا تحبيس الأصل مع تسبيل المنفعة ، ويعرف أيضا بأنه حبس مال لله يمكن الانتفاع به مع بقاء عينه ، بمعنى التصدق بشيء يكون أصله ثابتا أبد الدهر كالجنان والأراضي الزراعية ، أو على الأقل لمدة طويلة كبئر أو دار وغير ذلك والانتفاع به دائما مستمرا من خلال غلاته أو إيجاره وغير ذلك .

والوقف من أوجه الخير والبر التي حث الإسلام عليها ورغب فيها ، ولم يرد في القرآن الكريم مصطلح الوقف صراحة ، لكن الآيات التي تحث على فعل الخير والبر عموما ، وعلى البذل والإنفاق من المال خصوصا كثيرة ، ومنها ماهو محدد كالصدقات و الزكاة ، ومنها ما جاءت على وجه الإطلاق باستخدام لفظ الإنفاق أو غيره .

أما في السنة النبوية فقد روي عن محمد بن عبد الرحمن بن زراره قوله : " ما أعلم أحداً من أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من أهل بدر من المهاجرين والأنصار إلا وقد وقف من ماله حبساً لا يُشترى ولا يورث ولا يوهب حتى يرث الله الأرض ومن عليها " ، كما روي عن ابن عمر - رضي الله عنهما - أن عمر بن الخطاب أصاب أرضاً بخيبر فأتى النبي- صلى الله عليه وسلم - يستأمره فيها ، فقال يا رسول الله إني أصبت أرضاً بخيبر لم أصب مالاً قط أنفس عندي منه ، فما تأمرني به ؟ قال : " إن شئت حبست أصلها وتصدقت بها "، قال فتصدق بها عمر أنه لا يباع ولا يوهب ولا يورث وتصدق بها في الفقراء ، وفي القربى وفي الرقاب وفي سبيل الله وابن السبيل والضعيف ، ولا جناح على من وليها أن يأكل منها بالمعروف ويطعم غير متمول " ، حديث متفق عليه ، وهذا الوقف عدّه بعض العلماء أنه أول وقف في الإسلام .

أما الكتابات الوقفية فهي الكتابات التي تتضمن ذكر الأحباس الموقفة على منشأة ما تكون مسجدا أو مدرسة أو مرفقا عموميا ، وقد ظهر هذا من النوع الكتابات بالمشرق الإسلامي في فترة مبكرة جدا ومنذ النصف الأول للقرن الأول الهجري ، وربما يكون ظهورها حتى قبل ظهور الكتابات التأسيسية وغيرها من أنواع الكتابات الأخرى ، ثم انتقلت وانتشرت ببلاد المغرب لاحقا

في فترة غير محددة بالضبط ، لكنها عرفت انتشارا واسعا في العهد الزياني والمريني ، وانتشارا أكثر وأكثر في العهد العثماني ابتداء من القرن 16م ، والهدف الأساسي من هذه الكتابات حفظ أملاك الوقف من الضياع أو الاستيلاء عليها لاحقا ، فتكون مثبتة بنص واضح وفي مكان واضح ، ومن أمثلتها القديمة جدا في الإسلام وقفية عمر بن الخطاب المسماة وقفية ضيعة نوبة على بيت المقدس ، ومن نماذجها أيضا وقفية الظاهر بيبرس على ضريح أبي عبيدة بن الجراح بالأردن ، ومن أمثلتها بالجزائر كتابة مسجد ومدرسة العباد ، وكتابة جامع سيدي السنوسي ، وكتابة جامع سيدي زكري وكلها بتلمسان ، وكتابة جامع الباشا بوهران .

وتتكون الكتابات الوقفية عموميا من مجموعة من العناصر منها عبارات الاستفتاح والاستهلال ، وذكر الواقف (أي الواهب للوقف) وقد يكون شخصا واحدا أو أكثر ، والموقوف له (وهو الممنوح) ويكون غالبا مرفقا عموميا كمسجد أو مدرسة أو ضريح ، وقد يكون لأشخاص معينين كطلبة العلم أو المدرسين ، وموضوع الوقف وأكثرها الأراضي الزراعية والجنان أو الآبار ، والعقارات كالدور والمحلات والحمامت وغيرها ، ونجدها محددة بدقة في نص الكتابة من حيث موقعها وأبعادها وحدودها ، وقد نجد من العناصر أيضا تحديد وجه الاستفادة من الوقف بدقة ، ونجد أيضا تاريخ الوقف ، والدعاء بالخير والأجر والثواب لصاحب الوقف ، ومما يجدر بالذكر أننا نجد في كثير من الأحيان الكتابة الوقفية مع الكتابة التأسيسية في نص كتابة واحد وسنعطي لهذلك بعض النماذج .

نماذج للكتابات الوقفية :

1 - وقفية عمر بن الخطاب على بيت المقدس :

المكان والحالة : جدار القبلة بالمسجد العمري بقرية نوبا بجبل الخليل (فلسطين) بحالة جيدة

لوح من الحجر الرملي ، خط نسخ غير جيد بطريقة غائرة (الأبعاد غير متوفرة وكذلك التاريخ)

س 01 : بسم الله الرحمن الرحيم

س 02 : هذه الضيعة نوبا بحدودها

س 03 : وأطرافها وقف على صخرة بيت

س 04 : المقدس والمسجد الأقصى وقفها

س 05 : أمير المؤمنين عمر ابن الخطاب

س 06 : لوجه الله تعالا

2 - وقفية الظاهر بيبرس على ضريح أبي عبيدة الجراح :

المكان والحالة : يقع الضريح على مسافة ٦٥ كم إلى الغرب من مدينة عمان ، في منطقة الغور الأوسط (غور أبي عبيدة) بمحافظة البلقاء في الأردن ، وفي البلدة التي تحمل اسمه ، وتبعد عن مركز لواء دير علاً 2 كم ، والكتابة محفوظة بمتحف الضريح بحالة ممتازة على لوح من الرخام ارتفاعه 95 سم وعرضه 135 سم ، خط ثلث بطريقة بارزة حروف معجمة ، ذي الحجة 675 هـ

س 01 : بسم الله الرحمن الرحيم أمر بإنشاء هذه القبة المباركة على ضريح أمين الأمة أبي عبيدة بن الجراح

س 02 : رضي الله عنه مولانا السلطان الأعظم سيد ملوك العرب والعجم ركن الدنيا والدين .

س 03 : سلطان الإسلام والمسلمين أبو الفتح بيبرس بن عبدالله قسيم أمير المؤمنين خّلد الله ملكه ابتغاء مرضاة الله ورسوله مما وقفه

س 04 : ومن حبسه عليه نصف مغل دير توبين من مناصفات حمص من عمل حصن الأكراد المحروس تحبيسا مَؤبدا دًائما أًثاب الله واقفه

س 05 : بجوده وكرمه يوم يجزي الله المتصدقين ولا يضيع جزاء المحسنين وذلك بنظر الأمير الأجلّ الأعز

س 06 : الكبير ناصرالدين منكلي الجاشنكير الظاهري السعيدي نائب مملكة عجلون المحروسة في شهر ذي الحجة سنة خمس وسبعين وستمائة .

وكما نلاحظ على هذه الكتابة فهي تأسيسية ووقفية في آن واحد ، وقد ابتدأت بالاستفتاح بالبسملة ثم بلفظ الأمر بالبناء والإنشاء للقبة على ضريح الصحابي الجليل أبي عبيدة بن الجراح ، وقد ذكر بلقبه "أمين الأمة" ، وقبة الضريح هي الموقوف عليها ، وفي السطرين الثاني والثالث ذكر السلطان بيبرس بألقاب عديدة منها "سيد ملوك العرب والعجم" ، "ركن الدنيا والدين" ، "سلطان الإسلام والمسلمين" و "قسيم أمير المؤمنين" مع الدعاء له وهو الواقف في هذه الكتابة ، ثم ذكرت صيغة الوقف صراحة في نهاية السطر الثالث وبداية السطر الرابع وهي "مما وقفه ومن حبسه

عليه" مع ذكر عبارة "تحبيسا مؤبدا دائما"، ثم ذكر موضوع الوقف وهو نصف غلة لأرض بدير توبين من أعمال حمص ، ويبدو أنه مكان معلوم آنذاك ، وفي السطرين الخامس والسادس الدعاء للواقف مجددا ، مع ذكر ناظر الوقف وهو أمير عجلون ناصر الدين منكلي الجاشنكير ، ثم ذكر التاريخ في آخر الكتابة وهو ذي الحجة من سنة 675 ه (ماي 1277 م) .